

## شرح كتاب (عقيدة السلف وأصحاب الحديث) لأبي عثمان الصابوني - رحمه الله.

## شرح فضيلة الشيخ

أ.د. أحمد بن عبدالرحمن القاضي

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس (٥)

ثم إنه رحمه الله انتقل إلى مسألة من المسائل الكبار، من أمهات المسائل، وهي ما يتصل بصفة الكلام لله عز وجل، ومسألة القرآن، والرد على من زعم أن القرآن مخلوق.

فقال رحمه الله:

(ويشهد أهل الحديث ويعتقدون أن القرآن كلام الله وكتابه ووحيه وتزيله غير مخلوق، ومن قال بخلقه واعتقده فهو كافر عندهم، والقرآن -الذي هو كلام الله ووحيه- هو الذي نزل به جبريل على الرسول صلى الله عليه وسلم قرآنا عربياً لقوم يعلمون بشيراً ونذيراً، كما قال عز وجل: {وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ \* نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ \* عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ \* بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ} إلى آخر كلامه رحمه الله، وقد أطال النفس في هذه المسألة.

فنقدم بين يدي هذه المسألة تقرير عقيدة أهل السنة والجماعة في صفة الكلام لله عز وجل، ثم نتقل بعد ذلك، إلى الكلام عن ما يتعلق بالقرآن، فنقول:

أولاً: إن أهل السنة والجماعة يعتقدون أن الكلام صفة من صفات الله عز وجل، وأنه سبحانه وتعالى يتكلم متى شاء، كيف شاء، بما شاء، بكلام حقيقي بحروف وأصوات، لا يشبه كلام المخلوقين، هذا هو معتقد أهل السنة والجماعة في هذه الصفة.

الأدلة على ذلك: أولاً: الأدلة كثير جداً نقتصر من ذلك على قوله تعالى: {وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا}، كلم فعل ماضي مبني على الفتح، الله لفظ الجلالة فاعل مرفوع وعلامة رفعه الضمة، موسى مفعول به منصوب، تكلما

مفعول مطلق مؤكد لفعله، إذاً الله عز وجل أثبت لنفسه هذه الصفة لا أيين من هذا النص: {وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا}.  
 ما الدليل على أن الله سبحانه وتعالى، يتكلم متى شاء كيف شاء بما شاء، بمعنى ما الدليل على أن كلامه سبحانه وتعالى متعلق بمشيئته، يعني أنه من صفاته الفعلية؟

الدليل على ذلك قول الله عز وجل: {وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ}، إذاً حصل التكليم بعد المجيء، هذا يدلنا على أنه سبحانه يتكلم متى شاء.

ما الدليل على أن كلام الله عز وجل حروف؟

كل حرف في القرآن دليل على ذلك مثلاً: {إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ خُذْ الْعِزَّةَ بِأَمْرٍ مِنَّا وَادْخُلِ الْمَدِينَةَ مَعَ الرُّسُلِ} إذ قال الله، إذاً ما بعد قال الله الجملة نسميها جملة مقول القول، وهي مكونة من حروف، إذاً هو سبحانه وتعالى يتكلم بحروف.

ما الدليل على أنه يتكلم بصوت سبحانه وتعالى؟

دليل ذلك قول الله عز وجل: {وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا}، إذاً ثم ناداه ومناجاة، والمناداة هو الصوت لمن بعد، والمناجاة هي الصوت لمن قرب.

ما الدليل على أن كلام الله سبحانه وتعالى لا يشبه كلام المخلوقين؟

قال الله عز وجل: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} هذا المعتقد هو المعتقد الصحيح الذي قامت عليه دلائل الكتاب والسنة، وهو والله الحمد تقبله الفطر السليمة، ولكن أهل البدع شدوا في هذا شدو ذات عظيمة جداً.

أسرد عليكم لأنكم طلبة علم مقالاتهم، وإلا فإنه لا يصلح أن تقال عند العامة لما فيها من التلبس والتشويش، ولأنها مستهجنة تأباها الفطر.

فأهل البدع شرقوا بهذه الصفة، وعجزوا أن يثبتوا ما أثبتته الله تعالى لنفسه بما دلت عليه النصوص، نبينا صلى الله عليه وسلم، يعرض نفسه على القبائل ويقول: ((من رجل يحملني إلى قومه لأبلغ كلام ربي، فإن قريش قد

منعوني أن أبلغ كلام ربي))، ما في مشكلة الناس وكل سامع، يفهم من هذا أن الله تعالى متكلم، لكن أهل البدع شطوا في ذلك، وخرجت منهم مقالات عجيبة مستنكرة.

فمن هذه الفرق الفلاسفة، والفلاسفة طبعاً كفار، ولا شك، ماذا قالت الفلاسفة؟

قالوا: إن كلام الله فيض من العقل الفعال على بعض النفوس الزاكية يوجب لها تهيئات وتصورات تقوى حتى تتحول إلى أصوات.

طبعاً كلام غير معقول وغير مستوعب، لكننا نذكره من باب العلم.

العقل الفعال: هم يسمون الله عز وجل العقل الفعال، أو العلة الفاعلة.

النفوس الزاكية: يقصدون بها نفوس الأنبياء.

مقالة الاتحادية: وهم غلاة الصوفية: قالوا إن كل كلام في الوجود، فهو كلام الله عز وجل - عياداً بالله - قال قائلهم: وكل كلام في الوجود كلامه سواء علينا نشره ونظامه.

فكل ما يسمعه من أصوات يقول هذا كلام الله - تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً - فما يسمعون من كلام الآدميين والحيوانات والطيور وأصوات الآلات، وغير ذلك كل ما في الكون من صوت فهو كلام الله، لأنهم يعتقدون بعقيدة فاجرة، وهي عقيدة وحدة الوجود، لا يرون فضلاً بين الخالق والمخلوق.

القول الثالث: قول الكرامية؛ يقولون: إن كلام الله عز وجل حادث بعد أن لم يكن، يعني لم يكن الله متصف بالكلام، ثم حدث له الكلام، وهو قول باطل لاشك.

المقالة الرابعة: مقالة الجهمية والمعتزلة، قالوا: إن كلام الله مخلوق - عياداً بالله - قالوا: نعم يضاف الكلام إلى الله، لكنه من باب إضافة المخلوق إلى خالقه، ولهذا قالوا القرآن مخلوق؛ لأن القرآن كلامه، فالجهمية والمعتزلة، تقول إن كلام الله مخلوق.

المقالة الخامسة: مقالة الكلايية؛ يقولون: إن كلام الله معنًا قائم بذاته - سبحانه وتعالى - لا يتعلق بمشيئته، يعني أنه لا يتكلم متى شاء سبحانه.

المقالة السادسة: مقالة الأشاعرة تمامًا مثل مقالة الكلايية، قالوا: هو المعنى القديم القائم بذاته - سبحانه وتعالى -، إذًا ما الفرق بين مقالة الكلايية، ومقالة الأشاعرة؟ بينهما فرقان اثنان:

الفرق الأول: أن الكلايية قالت: أن الحروف والأصوات، مخلوقة وهي حكاية عن كلام الله، أما الأشاعرة فقالوا: أن الحروف والأصوات مخلوقة، ولكنها عبارة عن كلام الله.

الفرق الثاني: أن الكلايية قالت: إن كلام الله هو الخبر والاستخبار والأمر والنهي وغير ذلك، أما الأشاعرة فقالوا: إن كلام الله معنًا واحد، يعني الكلايية تقول: إن كلام الله أربع معاني، والأشاعرة تقول إن كلام الله معنًا واحد فالخبر هو الإنشاء، والأمر هو النهي، ولا فرق بين أي شيء من أجزائه.

طبعًا توجد صعوبة في تصور هذه المقالات، وهذا غير مستغرب لأن مقالات أهل البدع دائما شاذة ومستغربة ومخالفة للفطرة، بينما كلا أهل السنة وأهل الحق مقبول لأنه موافق للفطرة، ولذلك لن نستطرد في شرح هذه الفروقات، وهذه المقالات، وإنما قصدنا بيان افتراق الناس في هذا الباب.

بقي فرقة سابعة: وهم السالمية؛ هذه الفرقة قالت أيضًا إن كلام الله عز وجل: وصف قديم قائم بذاته، وأنه يتكلم بحروف وأصوات، لكن على وجه لا يسبق بعضها بعضًا، فالباء لا تسبق السين والسين لا تسبق الميم، بل هي مقترنة.

كل هذا مطرح، وقد أعاد الله أهل السنة من هذه المقالات السبع وما وسواها، وقالوا: إن كلام الله عز وجل صفة من صفاته الحقيقية وأنه متعلق بمشيئته وحكمته، يتكلم متى شاء كيف شاء بما شاء، وأنه يتكلم بحرف وصوت، بكلام حقيقي، لا يشبه كلام المخلوقين، فالله تعالى قد كلم أبونا في الجنة آدم وحواء ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ﴾، وكلم الله سبحانه موسى ﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنْ ائْتِ الْقَوْمَ

الظَّالِمِينَ} وكلم الله سبحانه وتعالى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، وسيكلم الناس يوم القيامة، وسيكلم أهل الجنة في الجنة، فهذا هو معتقد أهل السنة والجماعة، أن الكلام صفة من صفات الله.

لكن يا ترى هل الكلام صفة من صفات الله تعالى الذاتية أم من صفاته الفعلية؟

نقول: إن صفة الكلام لله عز وجل صفة ذاتية فعلية، ذاتية باعتبار، وفعلية باعتبار، ذاتية باعتبار أصل الصفة، وفعلية باعتبار آحادها وأفرادها، بمعنى إن صفة الكلام من الصفات الذاتية الملازمة لذاته، بمعنى أن الله سبحانه وتعالى لم يزل ولا يزال متكلماً سبحانه ما تنفذ كلماته {قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لَكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا}، إذا كلام الله عز وجل من حيث أصل اتصاف الله به من صفاته الذاتية، وأما من حيث تجدده فهو فعلي، فالله تعالى يتكلم متى شاء كيف شاء بما شاء، فقد كلم الأبوين في الجنة وكلم موسى بالتوراة وكلم عيسى بالإنجيل وكلم محمد صلى الله عليه وسلم بالقرآن، وسيكلم الناس يوم القيامة، وسيكلم أهل الجنة في الجنة، فهذه الآحاد متجددة فهي حادثة، ولهذا قال الله سبحانه وتعالى: {وَمَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ} كما في سورة الشعراء، محدث يعني أنه يحدثه الله حسب الوقائع والأحوال، وهذا لا ينافي كماله، وليس فيه نقص بأي وجه من الوجوه، بل إن هذا من لوازم كماله سبحانه؛ أن يتكلم بما شاء متى شاء كيف شاء.

إذاً من خلال عرضنا لأقوال أهل البدع في المقالات السبع، من الذي أنكر أن يكون الله تعالى يتكلم متى شاء، يعني من الذي أنكر أن يكون الكلام صفة فعلية؟

المعتزلة والجهمية أصلاً لم يثبتوا أن الكلام صفة لله، قالوا: هو مخلوق.

الاتحادية، إذا كانوا يقولون أن كل صوت مسموع فهو كلام الله، فمعنى ذلك أنه دائم يتجدد، فلا يصلح.

الكرامية قالوا: إنه حادث بعد أن لم يكن، وهذا معناه أنه عندهم ليس صفة ذاتية.

الفلاسفة: الواقع أنهم ليسوا من أهل الإسلام.

الأشاعرة والكلابية: أثبتوا الكلام المعنوي، الكلام النفسي، قالوا: إن كلام الله عز وجل هو المعنى القديم القائم بنفسه سبحانه.

والله لا يتكلم - بزعمهم - بحسب الوقائع وما تقتضيه حكمته، فإذا قلنا لهم إذا ما الذي سمعه الأبوان في الجنة؟ ما الذي سمعه موسى عند الشجرة؟ ما الذي يسمعه أنبياء الله حين يوحى إليهم؟ ما هذه الحروف والأصوات التي سمعوها؟

قالوا هذه الحروف والأصوات خلقها الله في الهواء فهي ليست كلام الله، ولكن الكلابية قالت: هي حكاية عن كلام الله، والأشاعرة قالت: هي عبارة عن كلام الله.

فحقيقة الأمر أن قول الأشاعرة والكلابية كقول الجهمية والمعتزلة، الجهمية والمعتزلة قالوا من البداية بكلام صريح قالوا كلام الله مخلوق، وأنكروا أن يكون صفة، الأشاعرة والكلابية نظراً لأن عندهم شيء من أصول أهل السنة، وتأثروا بمقالات المتكلمين = جاء مذهبهم ملفقاً، فأخذوا شيئاً من كلام أهل السنة وشيئاً من كلام المعتزلة، فقالوا: إن كلام الله صفة من صفاته، وهو المعنى القديم القائم بنفسه، يعني أثبتوا أن الكلام صفة ذاتية، لكن أثبتوا أن يكون صفة فعلية، أنكروا أن يكون الله يتكلم متى شاء، فقالوا إن هذا الذي سمعه الأبوان في الجنة والذي سمعه موسى عند الشجرة، هذه الحروف والأصوات التي طرقت أسماعهم أو سمعها الملائكة من الله عز وجل = أنها مخلوقة خلقها الله حكاية لتحكي كلامه، أو لتعبر عن كلامه.

ولا شك أن هذا الكلام لم يخطر ببال الصحابة رضوان الله عليهم، ولا يخطر ببال مسلم مولود على الفطرة، لكن هذا شؤم التأثير بمقالات المتكلمين والفلاسفة.

أما أهل السنة والجماعة فلم يروا بأساً في أن يثبتوا لله عز وجل هذه الصفة العظيمة صفة الكلام، كما أثبت لنفسه، فقالوا هي صفة ذاتية من حيث أصل الاتصاف بها، فعلية من حيث تجددتها على حسب الوقائع والأحوال، وهذا عين الكمال.

وبيان ذلك للتقريب أن يقال عنك: أنت متكلم، ومعنى متكلم يعني أن عندك أهلية وملكية الكلام، بمعنى أنك ليس أخرساً، لكنك تتكلم على حسب ما تقتضيه الحاجة، فإذا ألقى عليك أحد السلام وأنت صامت، قلت: وعليك السلام، إذا قمت تصلي قلت: الله أكبر، فأنت تتكلم حسب ما تقتضيه الحال، فبهذا ليس في هذا نقص، فالله المثل الأعلى، صفة الكلام لله عز وجل، صفة ذاتية من حيث أصل اتصاف الله عز وجل بها كسمعه وبصره وعلمه وقدرته، وصفة فعلية من حيث تجدها وآحادها، وأفرادها.

إذا علمنا هذا نقول إن القرآن العظيم من كلام الله، فما قررناه في صفة الكلام، ينطبق على القرآن العظيم.

فنقول: إن القرآن العظيم كلام الله تكلم الله سبحانه وتعالى به حقيقة وأوحى به إلى جبريل، فنزل به الروح الأمين على قلب محمد صلى الله عليه وسلم.

إذاً القرآن كلام الله منزل غير مخلوق، منه بدأ وإليه يعود، تكلم الله تعالى به حقيقة، وأوحاه إلى جبريل، فنزل به على قلب محمد صلى الله عليه وسلم، هذا هو تعريف القرآن عند أهل السنة والجماعة.

وكل ذلك بين والأدلة عليه من كتاب الله عز وجل، قال الله عز وجل: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾، نسمعه القرآن، قال نبينا صلى الله عليه وسلم: ((من رجل يحملني إلى قومه حتى أبلغ كلام ربي، فإن قریش منعوني أن أبلغ كلام ربي)).

منزل غير مخلوق: الأدلة على أنه منزل كثيرة جداً: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ﴾، ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ﴾، ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة التي تدل على أنه منزل.

غير مخلوق: طبعاً غير مخلوق، لأنه صفة، ولا يمكن أن تكون صفة من صفات الله عز وجل مخلوقة، لأن القول في الصفات كالقول في الذات، فالله الخالق وما سواه مخلوق، وصفاته تابعة لذاته سبحانه وتعالى.

معنى قول السلف: منه بدأ وإليه يعود: معنى منه بدأ: أي أن الله سبحانه وتعالى تكلم به ابتداءً، وبدأ منه سبحانه أي خرج منه سبحانه، وفي هذا رد على المعتزلة والجهمية، والأشاعرة والكلابية الذين يقولون إن كلام الله بدأ من غيره، خلق أصوات في الهواء، أو في الشجرة فسمعها موسى أو سمعها الأبوان في الجنة أو غير ذلك.

معنى قولهم: وإليه يعود: تحتمل معنيين: إما أن معناها وإليه يعود يعني إليه ينسب وإليه يضاف، فيقال: القرآن كلام الله، كما يضاف مثلاً هذا الكتاب، أقول هذا الكتاب كتابي ينسب إليّ يعود إليّ.

وإما أن يكون معناها: الإشارة إلى ما ورد في بعض الآثار من أن (القرآن يسرى به في آخر الزمان من الصدور ومن السطور)، وذلك والله أعلم إذا ترك الناس العمل به وهجروه، فيكرمه الله سبحانه وتعالى، فيسله من الصدور التي تحفظه ولا تعمل به، ومن السطور يعني من المصاحف، فهذا معنى قول السلف رحمهم الله: منه بدأ وإليه يعود.

فهذه مقدمة مهمة في هذا المبحث المهم الذي بدأ الشيخ في تقريره، ونتمه إن شاء الله تعالى في الدرس القادم، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ونبيه محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.